

الحمد لله واهب العقل للعالمين ، باعثاً بالخير كل النبین ، رافعاً به رأيتي الحق والدين ، وبعد: عند دراسة سيرة المصطفى ﷺ

العطرة فلا بد ان ندرس البقعة التي اختارها الله ﷺ لتكون هي المهد الأول والحاضنة للنبوة الشريفة . كلمة العرب تنبئ عن الصحاري والقفار، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أطلق على قوم قطّعوا تلك الأرض واتخذوها موطنًا لهم. وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشمالاً جزيرة سيناء، وشرقاً الخليج العربي وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوباً بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق، على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع. ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي؛ فإنها في وضعها الداخلي محاطة بالصحاري والرمال من كل جانب؛ ولأجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعًا لم يستطع الأجانب أن يحتلواها ويسيطرُوا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراً في جميع الشؤون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لو لا هذا السد المنيع. وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم، وتلتقي به بِرًا وبِحَرًا، فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقيا، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة آوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم؛ ومن ثم آسيا الوسطى وجنبها والشرق البعيد، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحراً، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً . والفنون.أقوام العرب وجاسم، وغيرها. وتسمى بالعرب القحطانية. 3 العرب المستعربة: وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام، وتسمى بالعرب العدنانية. وقد تشعبت قبائلها ويطوئها من ولد سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وأما بقية بنى سباء وهم أحد عشر أو أربعة عشر بطنًا فيقال لهم: السبئيون، وليس لهم قبائل دون سباء فأصل جدهم الأعلى وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حَرَانَ، ومنها إلى فلسطين، وفي إحدى هذه الجولات أتى إبراهيم عليه السلام على جبار من الجبار، ومعه زوجته سارة، وكانت من أحسن النساء، فأراد ذلك الجبار أن يكيد لها، ولكن سارة دعت الله تعالى عليه فرد الله كيده في نحره، فأخدمها هاجر اعترافاً بفضلها، أو خوفاً من عذاب الله ، ووهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام. ورجع إبراهيم عليه السلام إلى قaudته في فلسطين، وصار سباء لغيره سارة حتى أجالت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الرضيع إسماعيل فقدم بهما إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، فوضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت لهما قوتاً وبلاغاً إلى حين . والقصة معروفة بطولها. يقال: إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة، وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك. 1 ملوك مُتوّجون إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين . 2 رؤساء القبائل والعشائر وكان لهم من الحكم والامتياز ما كان للملوك المتوجين، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال، وربما كانت بعضهم تبعية لملك متوج . وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة لم تكن لهم تيجان. الإمارة بالحجاز ولي إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته، ثم ولـ واحد، ثم ولـ أمر مكة بعدهما جدهما مضاض بن عمرو الجرمي ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهـ، وظلت في أيديهم ، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ومضيـ الدهور والأيام ولم يـلـ أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلاً لا يذكرـ، حتى ضـعـفـ أمر جرهـ قـبـيلـ ظـهـورـ بـخـتـصـرـ، وأـخـذـ نـجـمـ عـدـنـانـ السـيـاسـيـ يـتـأـلـقـ فـيـ أـفـقـ سـمـاءـ مـكـةـ مـنـذـ ذـلـكـ العـصـرـ، بـدـلـيلـ ماـ جـاءـ بـمـنـاسـبـةـ غـزوـ بـخـتـصـرـ للـعـربـ فـيـ ذـاتـ عـرـقـ، فـإـنـ قـائـدـ

الـعـربـ فـيـ المـوقـعـ لمـ يـكـنـ جـرـهـيـاـ، فـلـمـ اـنـكـشـفـ ضـغـطـ بـخـتـصـرـ رـجـعـ مـعـدـ إـلـىـ مـكـةـ فـلـمـ يـجـدـ منـ جـرـهـ إـلـاـ جـوـشـ بنـ جـلـهـةـ، فـتـزـوـجـ بـأـبـنـتـهـ مـعـانـةـ فـوـلـدـتـ لـهـ نـزـارـاـ. وـسـاءـ أـمـرـ جـرـهـ بـمـكـةـ بـعـدـ ذـلـكـ، وـضـاقـتـ أـحـوالـهـ، وـاسـتـحلـواـ مـالـ الـكـعـبـةـ، الـأـمـرـ الـذـيـ كـانـ يـغـيـظـ

الـعـدـنـانـيـينـ وـيـثـيرـ حـفـيـظـهـمـ، فـقـامـتـ بـمـعـونـةـ مـنـ بـطـونـ عـدـنـانـ وـهـمـ بـنـوـ بـكـرـ بـمـحـارـبـةـ جـرـهـ، حـتـىـ أـجـلـهـمـ عنـ مـكـةـ، وـاسـتـولـتـ عـلـىـ حـكـمـهـ فـيـ أـوـاسـطـ الـقـرـنـ الثـانـيـ لـلـمـيـلـادـ. وـلـمـ لـجـأـتـ جـرـهـ إـلـىـ الـجـلـاءـ سـدـواـ بـئـرـ زـمـزـ، وـدـرـسـواـ مـوـضـعـهـ، وـدـفـنـواـ فـيـ هـذـهـ عـدـنـانـيـةـ عـدـةـ أـشـيـاءـ، قـالـ ابنـ إـسـحـاقـ: فـخـرـجـ عـمـرـ بـنـ الـحـارـثـ بـمـضـاضـ الـجـرـهـيـ بـغـزـالـ الـكـعـبـةـ، وـبـحـرـ الرـكـنـ الـأـسـوـدـ فـدـفـنـهـمـ فـيـ بـئـرـ زـمـزـ، وـانـطـلـقـ هـوـ وـمـنـ مـعـهـ مـنـ جـرـهـ إـلـىـ الـيـمـنـ، فـخـرـنـواـ عـلـىـ مـاـ فـارـقـواـ مـنـ أـمـرـ مـكـةـ وـمـلـكـهـ حـزـنـاـ شـدـيـداـ، وـفـيـ ذـلـكـ قـالـ عـمـرـ: بـلـيـ نـحـنـ كـانـ أـهـلـهـ فـأـبـادـنـا~ * صـرـوـفـ الـلـيـالـيـ وـالـجـدـوـدـ الـعـوـاـنـيـ وـيـقـدـرـ زـمـنـ إـسـمـاعـيلـ عـلـيـهـ السـلـامـ بـعـشـرـيـنـ قـرـنـاـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ، الـحـكـمـ فـيـ سـائـرـ الـعـربـ قـدـ تـقـدـمـ ذـكـرـ هـجـرـاتـ الـقـبـائـلـ الـقـحـطـانـيـةـ وـالـعـدـنـانـيـةـ، وـأـنـهـ اـقـتـسـمـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ بـيـنـهـاـ، وـمـاـ كـانـ

مـنـهـاـ فـيـ بـادـيـةـ الـشـامـ كـانـ تـبـعـاـ لـلـغـسـاسـنـةـ، إـلـاـ أـنـ هـذـهـ التـبـعـيـةـ كـانـتـ اـسـمـيـةـ لـاـ فـعـلـيـةـ، وـأـمـاـ مـاـ كـانـ مـنـهـاـ فـيـ الـبـوـادـيـ فـيـ دـاـخـلـ الـجـزـيـرـةـ

فُكانت حِرَة مطلقة. والحقيقة أن هذه القبائل كانت تختار لأنفسها رؤسائِها يسودونها، وأن القبيلة كانت حُكْمَة مصغرة، أساساً كيأنها السياسيَّة الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها. وكانت درجة رؤسائِ القبائل في قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعاً لرأي سيدتها في السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور قوى؛ حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألف من السيوف لا تسأله: فيم غضب، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناءِ العم كانت تدعوهُم إلى المصانعة بالناس من بذل الندى وإكرام الضيف والكرم والحل، وإظهار الشجاعة والدفاع عن الغيرة، ولاسيما الشعراة الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين. وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، والمربع: ربع الغنية، والصفى: ما كان يتصفهُ الرئيس، فأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسيَّة في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فالسادة ولاسيما الأجانب كان لهم كل الغُنْم، والحكومات كانت تستخدموها في ملذاتها وشهواتها، وراغبها، أما الناس فكانوا في عماليتهم يتخطبون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألواناً ساكتين، فقد كان الحكم استبداديًّا، والحقوق ضائعة مهدورة. وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبذبين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون في أهل العراق، ومرة يدخلون في أهل الشام. وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تقلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، وأما حُكْمَة الحجاز فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام، حُكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية، وحُكمت في الحرم وما والاه بصفتها حُكْمَة تشرف على مصالح الوفدين إلى البيت، وتتفقد حُكم شريعة إبراهيم، وكانت لها من الدوائر والتشكيّلات ما يشاهده دوائر البرلمان كما أسلفنا ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش،^{بيانات العرب} فكانوا يبعدون الله ويُوحُدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، ثم إنه سافر إلى الشام، فرأهم يبعدون الأوثان، فقدم معه بِهِبَل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم. أدركته قريش كذلك، وكان أول صنم للمشركين وأعظمهم وأقدسه عندهم. ومن أقدم أصنامهم مَنَة، كانت لهذيل وخزاعة، وكانت بالمشلَّ على ساحل البحر الأحمر حذو قُدُّيد، والمُشلَّ: ثنية جبل يهبط منها إلى قديد. ثم اتخذوا اللات في الطائف، وكانت لثقيف، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى، ثم اتخذوا العُزَّى بوارى نخلة الشامية فوق ذات عُرْق، وكانت لقريش وبني كنانة مع كثير من القبائل الأخرى. وكانت هذه الأصنام الثلاثة أكبر أواثان العرب، ثم كثُر فيهم الشرك، وكثُرت الأوثان في كل بُقعة. وهكذا انتشرت الأصنام ودور الأصنام في جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثُم في كل بيت منها صنم، أما المسجد الحرام فكانوا قد ملأوه بالأصنام، ولما فتح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وجد حول البيت ثلاثة وستين صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت، منها صنم على صورة إبراهيم، وصنم على صورة إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وبيدهما الأَلَّام، وقد أزيلت هذه الأصنام ومحيت هذه الصور أيضاً يوم الفتح. وجملة القول: إن الشرك وعبادة الأصنام كانا أكبر مظاهر دين مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام. ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تُبَان أَسْعَد أَبِي كَرَب، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحربين من بني قريطة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسيع والانتشار فيها، ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على النصارى من أهل نجران ودعاهما إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خداً لهم الأَخْدُود وأحرقوه بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، ويقال: إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً. وقع ذلك في شهر أكتوبر سنة 523 م. وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج؛ إذ يقول: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارَ ذَاتَ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} [البروج: 4: 7]. أما الديانة النصرانية، وكان أول احتلال الأحباش لليمن سنة 340 م، ولكن لم يطل أمد هذا الاحتلال، فقد طردوا منها ما بين عامي 378-370 م، إلا أنهم شجعوا على نشر النصرانية وتشجعوا لها، وقد وصل أثناء هذا الاحتلال رجل زاهم مستجاب الدعوات وصاحب كرامات اسمه فيميون إلى نجران، ودعاهما إلى دين النصرانية فلبوها دعوته واعتنقوا النصرانية؛ لما رأوا من آيات صدقه وصدق دينه. ولما احتلت الأحباش اليمن مرة أخرى عام 525 م كرد فعل على ما أتاه ذو نواس من تحريق نصارى نجران في الأَخْدُود، وتمكن أُبْرَهَة الأَشْرَم من حُكْمَة اليمن أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، وأراد أن يصرف حجَّ العرب إليها ويهدم بيت الله الذي بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة

أيضاً. أما المجنوسية، فكانت في عراق العرب وفي البحرين الأحساء وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي. وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن في غابر الزمان، تضعضع بنيان الصابئية وحمد نشاطها، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجنوس أو مجاورين لهم في عراق العرب وعلى شواطئ الخليج العربي. وقد وجد شيء من الزندقة في بعض العرب، كما وجدت في بعض قريش لاحتراكهم بالفرس عن طريق التجارة. الحالة الدينية كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبلوار، فالمسركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أنت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصي، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً. أما اليهودية، فقد انقلب رباء وتحكماً، وصار رؤساؤها أرباباً من دون الله، والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها. وأما النصرانية، فقد عادت وثنية عشرة الفهم، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي؛ وبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي أفسدها، وأما سائر أديان العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعواوينهم. الحالة الاجتماعية كانت في العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفذ القول القسطنطيني الأول، وكانت محترمة مصونة تسلُّ دونها السيف، وترافق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يتمدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في معظم أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للإسلام، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعدد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم. لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة. روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها. يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ويعتززها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل الذي تستبعض منه، فإذا تبيّن حملها أصحابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجاة الولد، ونکاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، [ف] يقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، فهو ابنك يا فلان، [ف] تسمى من أحببت [منهن] باسمه، فيلحق به ولدها. ونکاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع من جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم أحقوا ولدها بالذي يرون، فالناظطة به، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث [الله] [محمد] صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نکاح [أهل] الجاهلية كله إلا نکاح الإسلام اليوم. وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبّي نساء المقهور فيستحلّها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمّهم يلتحقهم العار مدة حياتهم. وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعدون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهي إليه، حتى حددوا القرآن في أربع. وكانوا يجمعون بين الأخرين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها حتى نهى عنهم القرآن {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَّفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْنَعًا وَسَاءَ سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ وَيَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَائِكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَيَنَاتُ الْأَخْ وَيَنَاتُكُمْ الَّذِي أَرْضَعَنَّكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ الَّذِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُنُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَالُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمِعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَّفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة النساء: 22، 23] وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لهما حد معين حتى حددهما الإسلام. وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط، أو صنفاً دون صنف إلا أفراداً من الرجال والنساء من كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإمام، والطامة الكبرى هي الإمام، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن فلاناً ابني، ذهب أمر الجاهلية، وقصة اختصار سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمّة زمعة وهو عبد الرحمن بن زمعة معروفة. وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول: ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق: {فُلَّ تَعَالَوْ أَتْلَ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْأَوَّلِيَّنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَنْقُلُوا النَّفْسَ إِلَيْهَا حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ نَلْكُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعْلَكُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران: 151] ولكن لا يمكن لنا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ليتقوا بهم العدو. فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة

بين القبيلة الواحدة تزيدتها العصبية، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعَبْسٌ وذُبْيان، وبِكْرٌ وتَغْلِبٌ وغيرها. أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً، وكانت قواهم متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها. وأحياناً كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغيرة. وكانت الأشهر الحرم رحمة وعوناً لهم على حياتهم وحصول معايشهم. فقد كانوا يأمنون فيها تمام الأمان؛ لشدة التزامهم بحرمتها، يقول أبو رجاء العطاردي: إذا دخل شهر رجب قلنا: مُنصِّلُ الأَسْنَةِ؛ وألقيناه شهر رجب. فالجهل ضارب أطنابه